

الفصل السابع

بين الدين والدولة

قلنا في بداية هذا البحث إن الحركة الصهيونية قامت على استغلال خاطئ ضال لعهود الرب مع إبراهيم ، ولقد كانت هناك عهود حقاً ولكن التزمت لتنفيذها شرط عبادة الله وطاعته والمحرص على أوامره والامتناع عن نواهيه ، ولم يف بنو إسرائيل بما ألزمهم الله فحق عليهم وعيده وانتهى أمر عشرة من أسباطهم إلى الزوال نهائياً من صفحة التاريخ ، وبقي سبطان كان مألم السبى في بابل بعد سقوط مدينتهم وتخريب هيكلهم ، وكان من الممكن أن يطوهم النسيان في غماره كماطوى أهل السامرة لولا السبى البابلي نفسه فهو وحده صاحب الفضل في بقائهم ، فلو أن نبوخذ نصر شتتهم كل مشتت كما شتت سرجون الثانى سكان السامرة لما قدر لهم أن يجتمعوا في ظروف وتحت عوامل غت وحدثهم وأهبت شعورهم القومى ، بل وهذبت طباعهم البدوية وحضرتهم . فلم يكن الإسرائيليون قبل السبى البابلي شعباً متحضراً حتى ولا متحداً فإن الثورات الداخلية كثيراً ما شابت تلك الوحدة التى حاول القضاة والملوك والأنبياء أن يحملوها عليها ، بل إن الشعور الدينى والعنصرى الذى ألهبت التوراة في ظل السبى البابلي ظلّ خائياً قبل ذلك ، ولم يبد أثر التوراة عليهم إلا بعد أن حضرتهم الحياة البابلية ، فلم يكن فيهم قبل ذلك غير قلة تستطيع القراءة والكتابة ولا يذكر تاريخهم نفسه أن الأسفار الأولى من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأوّل مرة إلا في عهد أوشيا ، ويبدو أن التوراة لم

تضم حتى ذلك الوقت غير أسفار موسى الخمسة أو الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وإن كان لديهم على صورة ما كثير من الكتب الأخرى ألحقت بعد ذلك في أزمنة متفرقة بالأسفار الأولى وكونت التوراة العبرانية الراهنة ومنها مثلاً ، أخبار الأيام والمزامير والأمثال .

فإذا كانت التوراة هى التى كونت الشعب الإسرائيلى فإن السبى البابلى هو الذى حملهم على الالتفاف حول التوراة وهو الذى نقلهم من شعب بدوى قبلى جاهل إلى شعب متحضر متحد يلهبه الشعور العنصرى ، يستطيع أن يقرأ التوراة ويلتمس فيها مثله الدينية والعنصرية ، ولعل الإسرائيليين لم يدركوا من قبل هذه القوى الروحية الفاعلة التى تنطوى عليها ديانة إبراهيم وتعاليم موسى ولا ذلك الإيثار الإلهى الذى كان لهم عند الرب والذى رددته التوراة كثيراً حتى خلق فيهم نوعاً من التميز والاستعلاء العنصرى كانا نكبة عليهم فى كل تاريخهم .

إلا أن الشعور العنصرى الذى شمل اليهود إبان السبى البابلى وكان ثمرة الغربة والتجمع حول التوراة ، كان من ناحية أخرى ثمرة التألف الفكرى لليهود ، ذلك التألف الفكرى الذى كان بدوره عملاً من أعمال النبى قبل أن يكون عملاً من أعمال الكاهن أو السياسى أو القضاة أو الملوك ، وكان النبى طرازاً فريداً من الناس وجد من قبل فى إسرائيل كما نقرأ ذلك فى أسفار التوراة ، ولكن أثر النبى لم يكن ليزر إلا فى الملّمات وعندما تتراكم المصائب على رأس بنى إسرائيل ، كان يظهر لينذر ويهدى ويشير وكان يتنبأ وتصدق نبوءته كما تقصّ التوراة ، ويبدو أن النبى كان رجلاً يفوق جيله حصافة وبعد نظر وكان متجرداً من أطماع الكاهن وطموح الملك فكان حكمه على الأمور صائبا ، وكان تأثير الأنبياء فى الناس إبان السبى البابلى يفوق ما كان لهم من تأثير قبل ذلك .

ولم يكن الأنبياء من طبقة واحدة بل كانوا رجالاً متباينى الأصل والمنبت ، فالنبي حزقيال مثلاً كان من الكهان وكان النبي عاموس من الرعاة يرتدى جلد الماعز إلا أنهم كانوا يتفقون فى شىء واحد هو أنهم لا يدينون بالولاء لغير الرب وأنهم يتصلون بالناس مباشرة دون تكريس الكهان أو إذن من ذوى السلطان ، ويقولون أن كلمة الرب قد جاءتهم ، وكانوا يتكلمون فى كل شىء ويخلطون بين الدين والسياسة ويحرضون الشعب على أعداء إسرائيل وينعون على الكهان تراخيهم وينددون بآثام الملوك ومعاصيهم وضلال الشعب وردائله وينقدون سوءات المجتمع والتباين بين الأغنياء والفقراء وتشبه الأغنياء بالأجانب مما يغضب رب إبراهيم الذى يسوطهم بعذابه جزاء ضلالهم وكفرهم .

وكانت هذه الأقوال تدون وتنسب إلى أصحابها وغدت بعد السبى البابلى جزءاً من التوراة العبرانية فحفظها اليهود جيلاً بعد جيل ، وكان أعظم ما خلفت من أثر فيهم أنها باعدت بين الإسرائيلى وبين الكاهن والمعبد والبلاط والملك وجعلته وجهاً لوجه أمام رب البر ، وتلك هى أهمية الأنبياء العظمى فى تاريخ بنى إسرائيل أو فى تاريخ البشرية كما يقول « ويلز » .

ولم تخل أسفار الأنبياء من إثارة البغضاء والكراهية والتميز وعدم الانصاف إلا لإسرائيل مما يذكرنا بذلك الشعور القومى الجارف الذى يلفح الأمم الناشئة بسعيه ويشير فيها ذلك التعصب العنصرى النميم الذى غدا علماً على إسرائيل ، ومن العسير أن نسئها قومية فيما غير من تلك الأزمان التى لم تعرف معنى القومية فهى أقرب إلى التجمع والتحزب والتآلف القبلى منها إلى القومية السياسية التى عرفناها فى القرن التاسع عشر والتى اقتبست منها الصهيونية معالمها واتجاهاتها فى المطالبة بوطن قومى وإنشاء دولة يهودية فى أرض الميعاد .

فالقومية اليهودية إذا جاز لنا أن نسميها كذلك ، أو التآلف اليهودي على وجه أدق ليس إلا خليطاً غير متجانس من انفعالات السبى ووحى التوراة ونبوءات الأنبياء تلك النبوءات التي وصلت إلى ذروة سامية من شطحات الخيال حين تنبأ أشعيا باتحاد العالم كله في ظلّ إله واحد ، إله إبراهيم رب البر والخير وتحت سيادة صهيون ، فهي نزعة عنصرية دينية أكثر منها نزعة قومية استقلالية ، إلا أن هذا الخليط غير المتجانس من الانفعالات التي غدتها عوامل عديدة قد استطاعت بفضل الأنبياء أن تكون هذا التآلف الفكري لليهود على اختلاف أزمانهم وطوائفهم ونزعاتهم وتشتتهم في كل صقع ، فالتميز والاستعلاء ونظرية الشعب المختار والتجمع حول التوراة وتابوت العهد والهيكل وأرض الميعاد قد غنتها أقوال الأنبياء وغدّأها السبى البابلي وقواها الانتقال من البداوة إلى التمدين والحضارة البابلية ، فالنبي دانيال مثلاً كان أحد الذين أمر الملك نبوخذ نصر بتعليمهم اللغة الكلدانية من بني إسرائيل ، فأصبح النتاج الفذ لكل هذا ، تلك العنصرية الصهيونية العارمة .

فالصهيونية ليست وليدة اليوم أو بنت الأمس ولكنها تضرب في أغوار الزمن إلى أيام السبى البابلي ولعل في كلمات هذا المزمور الذي دونه شاعر مجهول ما يبرز تلك الأمانى العنصرية الحادة التي ألهبت خيال اليهود منذ القدم .

- « على أنهار بابل جلسنا ، بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون » .
- « على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك » .
- « سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحاً » .
- « قائلين ، رغوا لنا من ترنيمات صهيون » .
- « كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة » .

« إن نسيك يا أورشليم تسر يميني ، ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك » .

« إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » .
« أذكر يارب لبني أدوم يوم أورشليم القاتلين هدوا هدوا حتى إلى أساسها » .

« يابنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا »^(١) .

وأصبحت العودة إلى أورشليم رمز أمانيتهم العنصرية ولا نقول القومية ، وشطط بهم الخيال فتصوروا العالم يدين لصهيون بالطاعة ولأورشليم بالولاء . وكان هذا طرازاً عجيباً من التجمع العنصرى لسيادة العالم ، فالقومية لا تكون إلا بوجود أمة ترتبط بوطن تعيش عليه بتلك العاطفة التى نسميها الوطنية والتى تلهب الشعور القومى وتغذيه ، ولم تكن قومية إسرائيل من هذا الطراز فإنها لم تتم إلا فى ظل الغربة والتشتت ، فلا يمكن أن يقال أنها ترتبط بوطن يعيشون فيه ، وأن هناك عاطفة تربطهم بهذا الوطن ، فالعاطفة الوحيدة التى تلهب شعورهم ليست هى العاطفة الوطنية ولكنها عاطفة الاستعلاء العنصرى والحنين الدينى . وأمل العودة إلى أرض لم تكن فى يوم من الأيام ملكاً لهم حتى حين بلغ ملك داود وسليمان أوج اتساعه ، فهى عاطفة قامت على خيال جامع ضال يغذيه وعد إلهى جاوزهم إلى غيرهم ممن قاموا برسالة إبراهيم وحملوا دينه إلى العالمين .

لذلك كانت القومية التى تدعيها الصهيونية طرازاً شاذاً من القوميات فهى لا تقوم على الحقيقة قدر ما تقوم على الخيال ، ولا تقوم على الواقع

(١) مزابير ١٣٧ .

قدر ما تقوم على الأمانى والأحلام ، ولا تستند إلى حقٍّ تاريخي قدر ما تستند إلى نبوءة دينية .

وهي طراز شاذ من القوميات لأنها تتعلق بوهم خبا منذ آلاف السنين ، اختلطت فيه المشاعر الدينية بالمشاعر العنصرية ، المشاعر التي أوحتها التوراة وغذتها فكرة الشعب المختار .

ولكن إذا كانت التوراة هي التي صنعت اليهود فإن اليهود هم الذين صنعوا التوراة قبل أن تصنعهم ، فالأسفار الأولى للتوراة التي ضمت التشريعات الموسوية لم تكن لتوحى لليهود بتلك المشاعر الدينية والعنصرية الحادة ولكنها أسفار الأنبياء هي التي أوحى بتلك المشاعر الدينية والعنصرية وقوتها على الزمن وخلقت هذا التآلف الفكري الذي عرف عن اليهود كما لم يعرف عن أي شعب آخر في العالم القديم أو الحديث بالرغم من تفرقهم وتشتتهم طوال الزمن ، وهذا التآلف الفكري هو الذي يدين له اليهود بالصمود والبقاء ، فاليهودي في أي مكان أو زمان لا يتغير وهو نفسه في كل زمان ومكان .

وهذا التآلف الفكري ميراث قديم يقوم على معتقدات ثابتة ومثل لا تتغير من التوراة وأقوال الأنبياء وعبور الزمن وتوالي المصائب على رأس اليهود لم تعد التوراة ولم تعد أقوال الأنبياء تلهب عنصرية إسرائيل أو تزكي هذا العداء الجارف الذي يجب أن يحمله الإسرائيلي في قلبه لغيره من البشر ولا سيما الأمم المسيحية فابتدع حاخاماتهم وحكماؤهم ما عرف بالتلمود وهو مجموعة وصايا ومبادئ سياسية في غلالة دينية تبسط لبني إسرائيل مكانتهم في هذا العالم وعلاقتهم بغيرهم من الأمم وسياستهم التي تجب عليهم حيال بعضهم البعض وحيال غيرهم من الأمم والشعوب حتى تتم لهم السيطرة على العالم وسيادته وتحقيق مكانة إسرائيل التي هي خليفة بها كما يقولون ، والتي اختارهم الرب لها وهم شعبه المختار الذي يبكى

لأجلهم وينوح ندمًا على ما جلبه عليهم من مصائب . ويتقدم الزمن ابتدع
الحاخامات ما سموه « بروتوكولات صهيون » وهى خطة سياسية مفصلة
للسيادة على العالم بطريق المؤامرة والتسلط وإثارة العداوات والإحـن بين
الدول والعمل على إشعال الحروب والتمكين لأتباعهم وعملائهم من
الحكام حتى يحققوا لهم سياستهم ويكونوا لهم درعًا ووقاءً من كل شر .

ويجتمع اليهود حول هذا الخليط المتنافر من أسفار التوراة وأحكام
التلمود وقواعد البروتوكولات فى نوع من التآلف الفكرى يثير الدهشة
والذهول ، إلا أن هذا التآلف الفكرى وهو جوهر العقيدة الصهيونية ، لم
يبرز فجأة ولم ينم طفرة ، بل سار فى خطى وثيدة مطردة حتى اكتمل فى
عقيدة الصهيونية ومبادئها الحادة . ففى بداية الأمر كان الحنين إلى
أورشليم هو الذى يلهب خيال اليهود بالخلاص من السبى البابلى .
ووجدوا فى المعبد عوضًا عن الهيكل مكانًا للتجمع والتآلف ، كما رأوا فى
الصلاة غناءً عن المذابح والقرايين ، وظلَّ المعبد بعد ذلك مركز التجمع
 لليهود ، ويمكن أن يقام المعبد فى أى مكان بل وأقيم فى البيوت حين كان
الضغط يشتد بهم ، وغدت هذه السرية التى يمارس اليهود فى ظلها
طقوسهم وعباداتهم سمةً عليهم بعد ذلك فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم ، ومن
هذه السرية نبعث هيئات ومحافل ومذاهب عديدة تنتشر فى بقاع العالم أجمع
وأحيطت بنفس السرية التى أحاط بها اليهود طقوسهم وعباداتهم مما حمل
الناس على نسبتها إليهم ، وفى هذا الجوَّ من السرية الخالصة عرفت
المؤامرة اليهودية طريقها إلى العمل ، وبلغت المؤامرة اليهودية من دقتها
أنها سخرت كثيرًا من أعدائها لخدمتها دون أن يعرفوا أنهم مسخرين
لخدمة من يكرهون ، وتتسم المؤامرة اليهودية بالدقة والأناة فالزمن ليس
له فى سبيل حبكتها والنتائج التى تعمل لها حساب .

وبرزت المؤامرة اليهودية في كثير من الانقلابات والثورات التاريخية التي تخدم أغراضهم وسياساتهم والتاريخ حافل بأخبارها ، وكمثل لها الانقلاب الذي قامت به جماعة الاتحاد والترقي في تركيا وعجل بسقوط الدولة العثمانية وانهيارها في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقد عاد عليهم سقوطها وتقسيم أملاكها بوعد بلفور والوطن القومي لإسرائيل . وتمتد المؤامرة اليهودية في الوقت الحاضر إلى كثير من البلاد العربية وتقوم على إشاعة الفرقة في صفوف العرب حتى تواتيها الفرصة لإنشاء دولة إسرائيل الكبرى ، ترتدى أحياناً ثوب القومية الزائف وأحياناً غلالة المبادئ الاشتراكية المضلّة .

وقد علت مكانة المعبد والمحاكم عند اليهود حتى طغت على مكانة الهيكل والكاهن منذ أيام السبي البابلي ، فلما عاد اليهود إلى فلسطين من سبي بابل عادوا شيعاً لا تدين جميعاً لكهان أورشليم بالتبعية والولاء ، منها الصدوقيون الذين يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويأخذون بالتوراة القديمة التي تضم الأسفار الموسوية الخمسة ويرفضون ما عداها من الأقوال والمأثورات التي ضمتها الأسفار التالية .

والفريسيون وكانوا ينكرون على الكهان استنثارهم بالشعائر والطقوس فأقاموها في البيوت بغير حاجة إلى رسامة أو تكريس كهنوتي وجعلوا من كل بيت هيكلاً مقدس المراسم ، وكان ذلك نواة المعبد الذي انتشر بفرق اليهود وتشتتهم ، وأخذوا على الصدوقيين إنكارهم للبعث والحياة الروحية ، لذلك كان انتظارهم للمسيح المخلص غير مقيد بصولة السيادة وصولجان الملك كما يرى الصدوقيون بل هو الخلاص في عالم الروح . ويقال أن معلّم السيد المسيح في صباه كانوا من الفريسيين . وثمة طائفة ثالثة هي طائفة الآسيين كما عرفوا في عصر الميلاد ، وكانوا

في بني إسرائيل كثرة تجمعها صرامة العقيدة وإحكام الخطة ، ولكنها تستقل عن الطوائف الأخرى بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها ، وأوشكت أن تستقل عن الهيكل في علاقتها بالدين والحكم ، ولم يكن يربطها بالهيكل إلا تقريب القرابين وإن كانوا يقربونها من النبات وينكرون ذبح الحيوان . وهم جماعة يغلب عليها النسك والتقشف يعملون بالفلاحة والصناعة ويرون التجارة رجساً لا يليق بهم وأكثر منها رجساً الحرب والقتال إلا دفاعاً عن أنفسهم فحرموا صناعة الأسلحة وحملها وهم يحرمون الرق ولا يقبلون سيادة أو رئاسة ويؤمنون بالبعث والخلاص الروحي على يد المسيح المخلص الذي يأتي ليهديهم إلى حياة الصلاح والاستقامة ، والمادة عندهم مصدر شرّ والمسرة هي مسرة الروح لا يرقى إليها الإنسان بغير العبادة والرياضة والنسك ، ورائدهم في تعاليمهم هو النبي عاموس الذي كان يبشر بأن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالنذور والقرابين .

وطائفة رابعة هي الطائفة السامرية ويقال إنهم خليط من بقايا يهود السامرة ومن نزح إليها من الآشوريين ، وقد أنكر عليهم يهود أورشليم بعد عودتهم من السبي البابلي عاداتهم الغريبة فاتهمهم بالوثنية وحرّموا عليهم مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد ، فعمدوا هم بدورهم إلى بناء هيكل لهم في جرزيم ينافس هيكل أورشليم ، وأخذوا يدعون إليه ويحصرّون القداسة فيه ، وبقي هيكل جرزيم منافساً خطيراً لهيكل أورشليم قرابة مائتي عام حتى هدمه كبير كهان هيكل أورشليم « حناهير كانوس » قبل الميلاد بمائة عام ولكنهم أعادوا بناءه وظلّ قائماً حوالى خمسة قرون بعد الميلاد ، حين ثارت السامرة على الحكم الروماني فعمد الامبراطور فسباسيان إلى هدم مدينتهم وهيكلهم وأقام على أنقاضها مدينة « نيوبوليس » أو نابلس الحالية . وينكر السامريون الخلاص على يدى

ملك من بيت داود ويقولون بالخلاص الروحي حيث يَأْتِي على قَدر وميعاد .

وبين هؤلاء وأولئك من تلك الطوائف والنحل اعتزل أناس بأنفسهم لا يتبعون طائفة ولا يدينون بنحلة بل يعبدون الله كما تهديهم عقيدتهم نسكاً ورهبانية يتزكّون بالتقشّف والعبادة ويكثرون من التطهر بالماء ومن هؤلاء المعتزلة يوحنا المعمدان أو يوحنا المغتسل .

وأضعف انقسام اليهود إلى طوائف ونحل من شأن الهيكل وسلطان الكهان ، وعلا تبعاً لذلك شأن المعبد وإن لم يحتلّ المعبد حتى ذلك الوقت تلك المكانة التي قدّر له أن يحتلّها فيما بعد ، بعد زوال الهيكل ، حين أصبح المعبد وحده مكان التجمع لليهود في كلّ قطر من أقطار العالم التي حلّوا بها . ولكن بقي للهيكل مكانته السياسية وبقي للكهان سلطنتهم الزمّني وهيبتهم الدينية حتى زاد عدد الكهان على حاجة الطقوس الدينية وخدمة الهيكل فقد حصّ موسى الكهانة في بيت هارون فلما تكاثر أبناء هارون وفاضوا على حاجة الهيكل قسم العمل بينهم حتى لا يحرم منهم أحد من خدمة الهيكل كما قست عليهم النذور والهبات التي حرم منها الكتبة أو فقهاء الدين وهم جماعة من الفريسيين ورد ذكرهم كثيراً على لسان المسيح تفقّهوا في الدين واشتغلوا بتدوين الأسفار ، فلما تقادم الزمن بالكهان غدت كثرة منهم لا تعمل في الهيكل ولكنها تتمتع بالتكريس الكهنوتي بينما لا يتمتع به أولئك الكتبة المتفقّهون في الدين ، فأقبل اليهود عليهم للفتيا في أمور دينهم وأهلوا الكهان وغدت المراسم الدينية بمرور الزمن غير مرتبطة بالهيكل ولا بالكهان انوراثيين .

ولما هدم الهيكل الثاني وتشتت اليهود في كافة أرجاء الأرض لم يعد هناك غير المعبد الذي يقيمونه في كلّ مكان يحلّون به ، سواء في السر

أو في العلن ، مكاناً للتجمع والعبادة ، وغدا الفقيه الدينى أو الحاخام زعيماً دينياً وقومياً لليهود بدل الكاهن الأكبر ذى الوراثة والرسامة .
وقد ينقض ذلك ما يقال عن التآلف الفكرى لليهود ، إلا أن اليهود مهما اختلفوا ومزقتهم الفرقة لا يختلفون فيما بينهم قبل غيرهم بل يتجمعون ويبدو تآلفهم كأقوى ما يكون ، فاليهودى أينما ارتحل يجد في المجتمعات اليهودية المنتشرة في شتى بقاع العالم ردفاً وسنداً ، وفي ارتحاله لا يتسى أورشليم فهى أم الحواضر عنده كما يقول فيلون فيلسوف الإسكندرية اليهودى .

فالتآلف الفكرى لليهود لم يكن غير بذر عقيم أخصب في ظلّ السبى البابلى ورواه الحنين فازدهر ولم يذبل بعد ذلك أبداً . كان بذراً عقيماً يوم انقسمت مملكة سليمان على نفسها بعد وفاته وغدا كل قسم من قسميها في فرقة لا يسودها الوفاق ، لا يخرج من ثورة داخلية حتى يقع في حرب أهلية ، كان بذراً عقيماً يوم تمردوا على أنبيائهم ويوم هجروا شريعتهم إلى الشرائع الوثنية الغالبة حولهم .

فلما عادوا من الأسر وبنو الهيكل من جديد كان بناء الهيكل مظهرًا بارزًا لفكرة اتئلفت عليها قلوبهم ولكن سرعان ما عاد الانقسام إلى صفوفهم حين منعوا يهود السامرة من بنائه معهم فأقام أهل السامرة هيكلهم في جرزيم ، ولكن طوائفهم الأخرى بقيت تلوذ بهيكل أورشليم وترى فيه قدس أقداسها وإن اتخذت أحياناً من المعبد عوضاً عن الهيكل في ممارسة العبادات والطقوس .

وغدت التوراة قانون الحياة لدى اليهود جميعاً عندما دعا الكاتب عزرا يهود أورشليم عام ٤٤٥ ق . م . إلى اجتماع عام ليقراً عليهم « سفر

شريعة موسى» ، وظلّ سبعة أيام مع اللاويين يقرؤها لهم ، فلما فرغوا من قراءتها ، جعل الكهان والزعماء والشعب بينهم موقفاً ألا يخرجوا على طاعتها بعد ذلك وإلى أبد الأبدين ، وبقيت دستور اليهود منذ تلك الأيام النكدة كما يسميها «ول ديورانت» حتى اليوم تقيدهم إليها وتربطهم بها خلال تيههم الطويل عبر الأجيال والقرون .

وكان إبرام هذا الميثاق الذى دعا إليه عزرا الخطوة التالية في أهيتها لبناء الكيان اليهودى بعد جمع التوراة وتدوين أسفارها ، فإن التاريخ اليهودى يبدو خلواً من كلّ ما يحفز النزعة القومية إلى التميز والظهور ، فلم يكونوا دائماً غير شعب صغير تحكمه حصافة الكاهن أحياناً وتقوده مطاعم الملك أحياناً أخرى . يتجمع حول الهيكل وينصت إلى نبوءة النبى ، ولكنه ما لبث أن غدا شعباً بلا ملك وبلا هيكل ولم تبق له غير التوراة يستلهمها كيانه وأمله في البقاء ، وغير النبى الذى يلهب وجدانه الدينى والعنصرى ، فلما عاد من الأسر ، عاد شعباً آخر ، فإن كثيراً منهم طابت لهم الحياة في بابل واستهوتهم الحضارة البابلية ولم يعد غير قلة من الخلقاء الذين هفت قلوبهم إلى أورشليم ، والفقراء الذين رأوا في العودة أملاً في حياة جديدة ، ولكنهم ما لبثوا حتى أدركوا أن الأمل في مملكة داود قد خبا إلى الأبد فلم تكن لهم غير أورشليم وما حوالها من أرضها يحكمونها تابعين لإمبراطورية فارس ويمنعون من بناء أسوارها حتى أذن إمبراطور الفرس بذلك تكريماً منه لساقيه اليهودى النبى «نحميا» ولم يعد لهم من أمل إلا في الهيكل والتوراة فالتفتوا حولها واثلت عليها قلوبهم .

وخطا عزرا خطوةً أخرى لتوطيد الكيان اليهودى بتكوين المجمع المقدس المعروف «بالسنهدرين» وإن أرجعه بعض المؤرخين إلى ما قبل ذلك حين أمر موسى أن يكل أمر الشعب الإسرائيلى إلى واحد وسبعين

رجلاً من شيوخهم يشاركونه في تسيير أمورهم .
ويتكوّن السنهدرين أو المجمع المقدس جرياً على سنة موسى من واحد
وسبعين رجلاً من الكهان وذوى الرأى والخصافة برئاسة الكاهن الأكبر ،
يشرّعون لليهود ويقضون بينهم ويسيرون أمورهم ، واجتمعت فيه السلطة
الدينية والزمنية وغدا الكاهن الأكبر حاكماً دينياً وزمناً . وفى هذا المجتمع
الجديد أصبح المعبد مصلاًهم ومدرستهم ومجمعهم ، ومنذ ذلك الحين علت
مكانة المعبد حتى قدر له أن يقوم بالدور الرئيسى فى تآلف اليهود
الفكرى . هذا التآلف الذى يدور حول فكرات معينة لا يشذ عنها
ولا يتعداها لأنها سرت فى وجدان اليهود مسرى العقيدة الثابتة الصماء منذ
وجد اليهود على ظهر الأرض ، وهى السر فى بقائهم واستمرارهم بالرغم
من تشتتهم وقلة عددهم ، هذه الفكرات الثابتة الصماء هى أنهم شعب الله
المختار الذى اصطفاهم وحدهم لعبادته من دون العالمين ، وأن التوراة هى
شريعته المقدسة قننت لهم أمور دينهم ودنياهم وأنهم وعدوا من لدن الرب
بأرض الكنعانيين التى أصبحت تعرف بفلسطين منذ الحكم الرومانى ، وأن
فلسطين ليست أرض مياعدهم فحسب بل تمتد لتشمل كل الهلال الخصيب
من « نهر مصر إلى نهر الكبير نهر الفرات » وليست فلسطين غير مركز
التجمع والوثوب . وأن هيكلهم وقُدس أقداسهم فى أورشليم دون سواها .
وفى عدا هذه الفكرات فإنهم لا يتفقون على شىء مما أوقع كثيراً من
المؤرخين فى تفسيرات خاطئة أو تناقض فى إبراز الصورة التى يرسمونها
لهم ، فابن خلدون يرى أن « وسواس » الحسب والنسب قد بقى فى اليهود
دون « العصبية » فضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى
الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلاًفاً من السنين . وما زال هذا
الوسواس مصاحباً لهم فتجدهم يقولون : هذا هارونى . هذا من نسل
يوشع . هذا من عقب كالب . هذا من سبط يهوذا . مع ذهاب العصبية

ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاوله^(١).

ويقابل العصبية كما يعنيها ابن خلدون القومية والتماسك القومى فى وقتنا هذا فلم يعد لعصبية الأسرة والقبيلة والجماعة ما كان لها فى الزمن الماضى بل غدت العصبية عصبية الأمة والدولة القومية ، وفقد اليهود تماسكهم الاجتماعى والقومى منذ آلاف السنين ضربت عليهم فيها الذلة والمسكنة كما يقول ابن خلدون حقاً ولم يعد لهم كيان الأمة وعصبيتها ، ولكن بقى لهم تماسكهم الفكرى وهو سرّ بقائهم واستمرارهم وصمودهم للفناء . فلولا هذا التماسك أو التآلف الفكرى لذوت العقيدة اليهودية بين غيرها من العقائد "رثية التى سادت إلى جوارها طويلاً قبل بعث المسيحية والإسلام فإن بعثها قوى جذورها ، فقد بعثت المسيحية والإسلام مصدقين لشريعة موسى وإبراهيم ، ولولا هذا التآلف الفكرى لفنى اليهود فى الشعوب التى حلوا بينها وفيها من ساطهم بعذابه ، ومن بينها الشعوب المسيحية التى نقت عليهم تعذيبهم المسيح وقتله . فوسواس الحسب وقد بقى فى اليهود دون العصبية كان أحد الفكرات الهامة التى أبقت عليهم بعد أن ائتلفت قلوبهم عليها مالم تكن تستطيع العصبية فيهم أو فى غيرهم .

وهذا التآلف الفكرى هو الذى حملهم على العزلة فى أماكن خاصة من المدن التى يعيشون فيها وليس صحيحاً أن الاضطهاد هو الذى حملهم عليها ، ففى أنحاء العالم الإسلامى حيث عاش اليهود فى سلام وأمن ، اتخذوا لهم أيضاً أحياء خاصة لا يختلطون فيها بغيرهم . وفى هذه العزلة صان اليهود عصبيتهم ولم يفقدوها كما يقول ابن خلدون وإن اختفت فى غلالة من السرية والكتمان يسترها استخذاؤهم وقبولهم للذل ، وإن بقيت

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل الثالث عشر .

مجردة من القوة التي يرى ابن خلدون أنها سمة العصبية البارزة . فالتآلف الفكرى هو بعض ما يصون العصبية بل لعله أقواها ، وظل هذا التآلف الفكرى يلّم اليهود في نطاقه حتى خلقت منه الصهيونية نزعةً قوميةً حادةً ودعوةً سياسية منظمة رغم ما يشوبها من نقائص الجمع بين الدين والعنصرية في الدولة القومية .

ووقع « والتر باجت » الإنجليزى الذى عاش في القرن التاسع عشر فيما وقع فيه ابن خلدون العربى الذى عاش في القرن الرابع عشر حين أخذ عليهم قصورهم الحربى وأن تطورهم الحضارى ظل خلواً من أية نزعة عسكرية تصون الدولة وتحميها ، وغاب عنه أن تنظيم المجتمع الإسرائيلى في بدايته كان تنظيمًا عسكريًا حين قسم موسى أسباطهم في برية سيناء إلى ما يشبه الكتائب والفرق من تنظيمات الجيوش المعروفة ، وقادهم يشوع ابن نون بهذا التنظيم إلى أرض كنعان ، واستبك بنو إسرائيل في حروب عديدة مع جيرانهم حتى حطّم الآشوريون والبابليون قوتهم العسكرية ، وبعد عودتهم من المنفى كانت عودتهم أشبه بزحف عسكري منظم من بابل إلى فلسطين ، وخاضوا بعدها عدة حروب ضد جيرانهم ومنافسيهم بل وضد الحكم الإغريقى في سوريا وضد روما حتى أمتحت قوتهم ودمرت مدينتهم وخرب هيكلهم وتفرق شملهم على يد الرومان عام ٧٠ م . بعد كثير من الثورات التى قاموا بها ضد الحكم الرومانى .

فالمجتمع اليهودى لم يكن ينقصه التنظيم العسكرى ولم تعوزه النزعة الحربية ، فالشريعة الموسوية تحض على الحرب والقتال بل إن « يهوه » إلههم قد دعى في كثير من أسفار التوراة « برب الجنود » وفي ذلك يقول موسى إن « الرب رجل حرب » ويقول عنه داود إنه هو الذى يعلم يديه القتال ، بل إن « يهوه » ل يبدو في كثير من الأحيان متعطفًا للدماء محبا

للفتح والاستعمار « يطرد الحويين والكنعانيين والحيشيين » ولا يقطع مع الأعداء عهداً بل ينال ما يشتهى بحدّ السيف ويستبقّيه بحدّ السيف ، وهو إله معجب بنفسه إعجاب الجندي بنفسه يتقبل المدح والثناء ويشتهيه كما يقول « ول ديورانت » يتمجد بإغراق المصريين في البحر ، وينتشى برؤية الدماء فيدفع شعبه إلى القتل وسفك الدماء وإفناء أعدائه جميعاً ، وهو إله قاس يتفقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع ، متردد فيما يرم يندم على ما أنتوى من فتك بني إسرائيل حين يراجع موسى في ذلك ، فيه من غرائز السلب والنهب ما في الجندي الأصيل حين يوعز إلى بني إسرائيل أن يسلبوا المصريين « أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا » وهربوا بها في خروجهم ، وفيه صفات الجاسوس الماكر حين يطلب من بني إسرائيل أن يجعلوا على دورهم علامة من دم الكباش المضحاة حتى يميز بينهم وبين المصريين فلا يهلكهم معهم ، وفيه أيضاً ختل وخداع حين يتآمر مع يعقوب على خداع صهره لابان ، وهو إله قذح وسياب لا يتورّع أن ينعت شعبه بكلّ قبيحة ويصبّ عليه كلّ لعنة ، وتلك جميعاً هي صفات اليهود صوروا الرب على شاكلتها واتخذوا منها لأنفسهم بعد ذلك نموذجاً ومثالاً .

فالنزعة الحربية والتنظيم العسكري للمجتمع متأصلين في اليهود ولكن التنظيم العسكري لا يكون إلّا في مجتمعات موحدة يضمها وطن واحد ، فلما تفرقوا وتشتت شملهم غداً عسيراً عليهم في بلاد ينتمون إليها أن يقيموا مثل هذه التنظيمات العسكرية ، فلم يكن فناء دولتهم إذن بسبب قصورهم الحربي ولكنه جاء نتيجة لتفوق أعدائهم عليهم في العدة والعدد ، وسيبقى هذا التفوق قائماً ما دام أعداؤهم يفوقونهم في العدد والعدة بل والشجاعة أيضاً ، فاليهود رغم نزعتهم الحربية التي حضتهم شريعتهم عليها تنقصهم شجاعة المقاتل وأصالة الجندي ونبل الفارس فلا يقاتلون

إلا من وراء ستار ولا ينتصرون إلا غدرا .

ولو كان لليهود من مزايا الأمم الحربية ما يفوق مزايا التآلف الفكرى الذى عرف عنهم لكان مصيرهم مصير الأمم التى تميزت بالنزعة العسكرية واختفت من التاريخ بضعف هذه النزعة العسكرية أو زوالها ، فبقاء أمة من الأمم ليس رهنا بتفوقها العسكرى أو تميزها الحضارى وإنما هو رهن بالقدرة على التغير والمحافظة فى الوقت ذاته ، وكان ثمرة التآلف الفكرى لليهود أنه غرس فيهم هذه القدرة ونماها فلم يجمدوا أمام دواعى التطور بل استجابوا إليها وكيفوها وفق عقائدهم ومثلهم الاجتماعية والفكرية فصانوا أنفسهم من الفناء الذى يحترم الأمم التى لا تملك القدرة على التغير والمحافظة فى آن واحد .

وقوت العزلة التى فرضها اليهود على أنفسهم فى كل بلد يحلون به من هذه القدرة على التغير والمحافظة فهم فى عزلتهم يصنون تراثهم ومأثوراتهم وتقاليدهم مما ينمى القدرة على المحافظة ، ولكن العزلة اليهودية كانت بدورها ذات طابع فريد ، فهى عزلة فيما يتصل بأموالهم الخاصة ، ولكنهم فيما يتصل بالحياة عامة فى المجتمع الذى يعيشون فيه يتدمجون فيها اندماجا ظاهريا فهم كما يقول فيلون يتفرقون لطلب الرزق فى أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، وطلب الرزق يتطلب الاستجابة إلى قوانين المجتمع الذى يعيشون فيه ومجاراة أهله دون الأخذ بمأثوراته وتقاليده التى يحرصون على البعد عنها حتى وإن حملتهم الظروف على التظاهر بها . وهم حين يعزلون أنفسهم عن المجتمع باختيارهم يتغلغلون فيه بحوانيتهم ودورهم التجارية ومصارفهم ومراكز المساومة والسمسرة والصيرفة فهم لا يحترفون غير أسير المهن وأجزائها ربحا ومحاولون فى كل بلد أن يسيطروا على شئونه التجارية والمالية . وهم بعضهم لبعض رفق وسند ، ينزح اليهودى إلى بلد آخر فلا يحس وحشة الغربة لأنه يجد فى

كل بلد مجتمعاً يهودياً يلّمه ويأويه ، وهو في الوقت ذاته لا يربطه بالبلد الذى نزح منه رابطة من ولاء أو حب فكل ولائه وحبه لأورشليم حاضرتة الكبرى كما يقول فيلون فيلسوف الإسكندرية اليهودى فى القرن الأول للميلاد . وتلك مظاهر التآلف الفكرى لليهود فيما يتصل بحياتهم مع الآخرين .

ولكن التآلف الفكرى لأمة مشتتة لا يمكن أن يكون نواة لإنشاء دولة وإن كان من الممكن - كما برهنت الصهيونية - أن يكون نواة لدعوة قومية ترمى إلى إنشاء دولة ولكنها لا تتخذ من هذا التآلف الفكرى قوة لها ، بل تعتمد إلى أساليب السياسة والتنظيم السياسى أداة لإنشاء الدولة ، وهذا ما صنعتة الصهيونية . فالصهيونية حركة سياسية تستغل فكرة دينية مبهمّة ونزعة عنصرية حادة وأمالا خابية فى وطن لم يكن خالصاً لهم فى يوم من الأيام .

فالدولة اليهودية لم تقم فى أى يوم من الأيام إلّا إذا حسبنا هذا الحكم الأبوى لبني إسرائيل وامتلاك بعض فلسطين دولة من الدول ، فلم يكن حكام اليهود - إذا افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع كما يقول ويلز - غير قضاة من الكهنة يختارهم كبار الشعب ، ثم عمدوا فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد إلى اختيار ملك هو شاءول ليقودهم فى الحرب ولكنه هلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين فى معركة جبل جلبوع وأخذت دروعه إلى معبد عشتروت ودقّ جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان . وليس فى تاريخ اليهود من مقومات الدولة ما يصح أن نقف عنده إلّا حكم داود وابنه وخليفته سليمان ففى حكمهما أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التى قدر لبني إسرائيل أن يعرفوها على مرّ العصور كلها ، ويرجع الفضل فى هذا الرخاء إلى محالفة أبرمها حيرام ملك صور مع داود

ومن بعده سليمان ، وكان حيرام يبغى أن يشق طريقاً آمناً للتجارة الفينيقية عبر التلال الداخلية التي يسيطر عليها بنو إسرائيل إلى خليج العقبة حيث أنشأ سليمان ميناء عصيون جابر . وبرعاية حيرام بنيت أسوار أورشليم وهيكلها وقصرها ، وعادت التجارة على سليمان بأرباح وفيرة وبلغ من اليسار والأبهة ما لم يره شعبه من قبل ومن بعد حتى سمح فرعون مصر أن يزوجه ابنته ، بيد أنه لا يصح أن يغيب عن أذهاننا التقديرات النسبية للأمور ، فلم يكن سليمان غير ملك صغير يحكم شعباً صغيراً إذا قيس إلى غيره من الشعوب المجاورة كالمصريين والبابليين والآشوريين ، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى اجتاحتها شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين ودخل أورشليم واستولى على كنوزها .

ويقف كثير من المؤرخين موقف الريبة من قصة مجد سليمان التي تقصها أسفار الملوك ويقولون أن الكبرياء القومي لليهود في عهود متأخرة هو الذى حملهم على الإضافة إليها وتهويلها ، هذا عدا أنه أبهظ كاهل الشعب بالسخرة والضرائب كما تقول الأسفار مما عجل بانهيار المملكة وانقسامها إلى مملكتين لا يعدوان كونها ولايتين صغيرتين تعركها مصر من الجنوب وسوريا وبابل من الشمال والشرق ، يقول عنها ويلز أن تاريخها هو تاريخ ملوك من الهمج يحكمون شعباً من الهمج ، لا تخلصان من نكبة إلا لتحل بهما نكبة أقسى حتى قضى عليها واحدة بعد الأخرى تحت سنايك المغيرين .

ولما عادت القلة التي ارتضت العودة من بابل لم تستطع أن تقيم دولة بالمعنى المعروف للدولة ، وخضعوا لنوع من الحكم الأبوى هو حكم العشيرة تحت سيادة فارس أو مصر أو روما ، وكانوا دائماً مصدر قلق

لجيرانهم وللدول التي تحكمهم حتى سبّرت عليهم روما جحافلها فدمرت
أورشليم وأضرمت النار في الهيكل وقتلت ونهبت وبدأ اليهود عهد تيهيم
الطويل . ولم يعد لليهود غير التوراة وغير المعبد الذي يقيمونه في كل
مكان يحلون به .

فاليهودية دين وليست قومية واليهود طائفة دينية ككل الطوائف
الدينية المنتشرة في العالم والتي تنقسمها أوطان وقوميات مختلفة ،
أما الصهيونية فحركة جديدة كل الجدة على اليهود لا تمت إلى ماضيهم
بصلة من الصلات أو آصرة من الأواصر ، ولكنها حركة تنبع من صميم
الفكر اليهودي مما حمل كثيراً من الباحثين على تقصيصها في تاريخ اليهود
القديم وإرجاعها إلى عهودهم السابقة فمنهم من يرجعها إلى انهيار مملكة
داود والأمل في عودتها ومنهم من يعود بها إلى السبي البابلي والحنين إلى
أورشليم أو إلى أبعد من ذلك ، إلى وعود الرب لإبراهيم أو أقرب من
ذلك ، إلى ما تركه الاضطهاد في نفوس اليهود المشتتين من رغبة التجمع
في وطن ما أو في فلسطين بالذات . ومن هؤلاء الباحثين - كالعقاد مفكر
العرب الحديث - من يرى أنها « حركة سياسية تابعة لقيام الدولة
وسقوطها في بيت داود » وأن اليهود حين حملوا إلى الأسر « أصبح الحنين
إلى صهيون رمزاً للحنين إلى عودة المملكة الغابرة وتحولت الوعود الإلهية
في كتبهم تحوُّلاً جديداً مع مصالح السياسة ، فانهضت في ذرية داود
- عليه السلام - ليخرج منها غير ذى الذرية من اليهود^(١) . فالصهيونية
في رأى العقاد حركة سياسية ترجع إلى سقوط مملكة داود والسبي البابلي .
والواقع أن الصهيونية حركة سياسية ، ولكنها حركة سياسية جديدة
من طراز الحركات المذهبية والسياسية في العصر الحديث ولا تمت بأية صلة

(١) عباس محمود العقاد : الصهيونية العالمية ص ١١ .

من الصلات كما قلنا إلى ماضى اليهود أو تاريخهم ولا إلى قيام مملكة داود أو سقوطها ، ولا إلى العودة من الأسر أو التشتت الأخير . هى حركة سياسية تنبع من واقع التطور الفكرى والسياسى للحضارة الحديثة ، ولكنها تستمد أصولها من الفكر اليهودى الذى ظلّ حياً فى أعقابهم حتى الجيل الحاضر ، والذى يأتلف حول مثل التوراة وما جدّ من شرائع التلمود كما بينا من قبل .

والصهيونية نسبة إلى صهيون وهو حصن أورشليم كان فى حوزة الليبوسيين واستولى عليه داود « وأخذ داود حصن صهيون . هى مدينة داود وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود^(١) » ، وعُمت الكلمة بعد ذلك حتى أصبحت رمزاً لملك إسرائيل ونسبة لهم فيقال أبناء صهيون كما يقال أبناء إسرائيل ووردت بهذا المعنى فى الأسفار الأخيرة من التوراة . وليس لها صفة من صفات القداسة فقد اختار عليها داود « بيت داود » بدلاً من حصن صهيون ، وفى أشعيا أن الرب يسميها باسم جديد « من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد ، فترى الأمم برك ، وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب^(٢) » .

واختارتها الحركة الصهيونية علماً عليها وسمى لها لأنها أيسر الأسماء شيوعاً على الألسن من كل الأسماء الأخرى التى تواترت فى تاريخ بني إسرائيل ، ولأنها فى الوقت ذاته ترمز إلى كل تراث إسرائيل من العقائد الدينية والأفكار السياسية الغابرة ، التى عبرنا عنها بالفكر اليهودى .

(١) صموئيل الثانى ٥ : ٧ - ١٠ .

(٢) أشعيا ٦٢ : ١ .

ولكن الصهيونية بالرغم من أنها حركة سياسية جديدة كل الجدة إلا أنها تستمد أصولها كما قلنا من الفكر اليهودي المتجدد كما تستمد حيويتها من ائتلاف هذا الفكر حول عقائد دينية ثابتة لا تتغير ولكنها مبهمة يحوطها الغموض ، والحركة الصهيونية هي التي أخرجتها من حيز الإبهام والغموض كما يقول الكاتب الصهيوني « جوزيف هيلر » إلى حيز المبادئ الواضحة والأغراض المحددة ، فغدت بذلك حركة سياسية واضحة المعالم تقوم كغيرها من الحركات السياسية أو المذهبية على أيديولوجية ثابتة ، هي أن اليهود أمة كغيرهم من الأمم ولكل أمة وطن ما عداهم ، وبسبب هذا يعانون ما يعانونه من اضطهاد ، فلو كان لهم وطن يلوذون به وينتمون إليه لما وقع عليهم اضطهاد ولما أحسوا بالغرابة في كل مكان يحلون به .

وليس للفكر اليهودي القديم أثر في هذا الاتجاه القومي الجديد بل هو نتيجة للنزعة القومية الحادة التي عمت أوروبا وألهمت بها بفيض من العواطف الوطنية في القرن التاسع عشر ، ففي ذلك الوقت سارت دعوة الإخاء والمساواة جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى الحرية ، حرية المواطن في وطنه وحرية الوطن من أي حكم أو سيطرة خارجية . وأفاد اليهود منها معاً فتمتعوا بالمساواة مع غيرهم من المواطنين ومن ثم تطلّعوا إلى وطن يجمعهم من غربة وشتات . إلا أن فكرة الوطن القومي لليهود جاءت متأخرة بعض الشيء وأثارت كثيراً من الجدل بين اليهود أنفسهم قبل أن يستقروا على اختيار فلسطين وطنًا قومياً .

واتجه اليهود في البداية إلى الإفادة من ذلك وقام «موسى مندلسون» في ألمانيا يدعو قومه إلى الخروج من عزلتهم والاندماج مع جيرانهم من المسيحيين والأخذ بعاداتهم وثقافتهم وسرعان ما امتدت دعوته إلى بقاع أخرى من أوروبا ، وبدت حركات شبيهة تدور جميعاً حول ضرورة خروج

اليهود من عزلتهم التقليدية ، وظهرت تفسيرات عديدة لأرض الميعاد ودعا «ازهام جيجر» و «صونيل هولديم» إلى العدول عن فكرة المسيح المنتظر من بيت داود لخلاص بني إسرائيل والعودة بهم إلى أورشليم وحذف ما يشير إلى هذه العقيدة في التراتيل والصلوات ، وكتب «موسى هس»^(١) كتاباً بعنوان «روما وأورشليم» يقول فيه إن أورشليم لليهودية مركز ديني وقومي . وحمل فيه على الحاخامات الذين يضحون بفكرة القومية على مذبح الفكرة الدينية الخالصة ، وانتهى فيه إلى أن فلسطين هي الحل الوحيد للمشكلة اليهودية .

وكان هذا قميئاً بتخفيف حدة العداء لليهود وخاصة بعد أن فترت النعرة الدينية ولم يعد لها من الحدة ما كان لها من العصور الوسطى ، إلا أن الاندفاع نحو فكرة الوطن القومي وما يصحبها من شك في ولائهم للأوطان التي ينتسبون إليها أبقى جذوة الشك في نواياهم حية . والدعوة إلى الوطن القومي كالصهيونية دعوة جديدة ولكنها متأخرة نسبياً عن الدعوة إلى الخروج من العزلة ومتقدمة على الحركة الصهيونية وإن كنا نعتبرها بحق أساس الحركة الصهيونية .

وظهرت دعوة الوطن القومي في البداية غامضة مبهمّة وثار حولها كثير من الجدل بين اليهود ، فمنهم من ارتضاه في فلسطين أو في أي مكان آخر ، ومنهم من عارضها أصلاً مع الاعتراف بأورشليم مركزاً روحياً لليهود ، ومنهم من رضى بحياته في ظل المساواة الجديدة خوفاً من أن يفقد اليهود ما نالوا من امتيازات لم تكن لهم قبل أن ينالوا حق المساواة مع غيرهم من المواطنين .

Moses Hess : Rome and Jerusalem (1862). (١)

إلا أن دعوة الوطن القومي ما كانت لتخفت في وقت كانت الثورات القومية تلهب كل أوربا ولاسيما الاقطار التي تتركز فيها أغلبية اليهود ، وانتهى الجدل بينهم إلى الاتفاق على ضرورة الوطن القومي سواء في فلسطين أو في غير فلسطين . وبدأت صعوبة تحقيق الفكرة في فلسطين حين عارضتها الدولة العثمانية منذ البداية ، وفي كافة محاولاتها منذ حاول موسى منتفيوري إنشاء مستعمرات زراعية لليهود في فلسطين ، فراودتهم فكرة إنشاء الوطن القومي في أوغندا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو الأرجنتين أو أية بقعة ترتضيها الدول المناصرة لهم حتى أن تيودور هرزل الذي يعتبر بحق رائد الصهيونية فكر في اختيار مكان آخر غير فلسطين واختار الأرجنتين .

وفي مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، وهو أول مؤتمر يجمع ممثلي اليهود في العالم منذ ثمانية عشر قرناً ، وضعت أسس الحركة الصهيونية ، وأصبح صهيونيا كل من يعتنق المبادئ التي وضعها مؤتمر بال ويقوم بدفع اشتراك المؤتمر السنوي وهو ما يوازي خمسة قروش .

وتتلخص مبادئ مؤتمر بال في عبارة واحدة هي إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، وقد انتهت مداولات المؤتمر الذي ظل منعقدًا مدة ثلاثة أيام بنشيد الأمل الذي أصبح فيما بعد النشيد الوطني اليهودي .

وهكذا تبلورت فكرة الدولة اليهودية وانتقل اليهود من الآمال الدينية المبهمة إلى حقائق السياسة المجردة وإن استمدوا من تراثهم الديني القديم كل ما يلهب شعورهم القومي من التذكير بأرض الميعاد ووعد الرب ومملكة داود مما اثنتلفت عليه قلوبهم من قبل ، ولم يخب من وجدانهم أبداً طوال حياتهم العسرة النكدة .